مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
Eissn :2600-6405 Issn : 2353-0472
المجلد: 11/ العـدد: 03 (2023)، ص: 21–36

البعد المثالي في فلسفة التاريخ عند فريديريك هيجل (قراءة تحليلية نقدية)

The ideal dimension in the philosophy of history according to Friedrich Hegel (read critical analysis)

لكحل فيصل[1]

[1]جامعة ابن خلدون تيارت (الجزائر)، faysal.lakehal@univ-tiaret.dz

تاريخ الاستلام: 2023/08/31 تاريخ القبول: 09/10/ 2023 تاريخ النشر: 09/14/ 2023

ملخص:

يهدف المقال إلى تحليل نظرية فريديريش فيلهالم هيجل Georg Wilhelm Friedrich Hegel (1770-1831) في فلسفة التاريخ من خلال البعد المثالي الذي فسر من خلاله حركة التاريخ، والحق أن نظرة هيجل إلى التاريخ لا تنفصل عن النسق المثالي العام الذي يحكم فلسفته (المثالية المطلقة)، وهذا تمييزا لها عن باقي الفلسفات المثالية في تاريخ الفلسفة كمثالية أفلاطون ومثالية كانط، ومن ذلك نجد أن تفسيره لحركة وسيرورة التاريخ ينطلق من فكرة أن العقل يحكم التاريخ، وكيف أن مسار التاريخ هو مسار العقل الإنساني ذاته أو أن التاريخ العالمي هو تاريخ العقل والروح.

كلمات مفتاحية: التاريخ، العقل، المطلق، الحرية، الجدل، المجتمع.

Abstract:

The article aims to analyze Friedrich Hegel's (1770-1831) theory in the philosophy of history through the idealist dimension through which he explained the movement of history, and the truth is that Hegel's view of history is inseparable from the general idealistic pattern that governs his philosophy (absolute idealism), and this distinguishes it from the rest of the idealist philosophies in the history of Philosophy is like the idealism of Plato and the idealism of Kant, and from that we find

that his interpretation of the movement and process of history stems from the idea that the mind governs history, and how the course of history is the path of the human mind itself, or that global history is the history of the mind and the spirit.

Keywords: Histoire, raison, absolu, liberté, controverse, société.

المؤلف المرسل: لكحل فيصل

1. مقدمة:

تعتبر فلسفة جورج فريديريش فيلهالم هيجل Georg Wilhelm Friedrich Hegel (1770-1831) الخاتمة الظافرة لتاريخ الفلسفة الحديثة، فإذا كانت الحداثة الفلسفية مع رونية ديكارت وجدت في الذات العارفة تأسيسها النظري الذي اكتمل مع إيمانويل كانط في الذاتية المتعالية، فإن البعد الجديد الذي أضافاه هيجل إلى ماهية الذات الإنسانية هو بعد التاريخ، إن التاريخ في منظور المثالية المطلقة عند هيجل هو الماهية الأساسية التي تحقق الذات من خلاله ذاتها، والتاريخ في مذهبه ليس إلا التحقق الجدلي للحرية المطلقة، والتي هي الماهية الأساسية للذات، لكن كيف يمكن أن نفهم التاريخ في المنظور الفلسفي المثالي الهيجلي؟ ما التاريخ وما المنهج الذي يمكن من خلاله دراسة موضوعاته؟ وما هي علاقة الفلسفة بالتاريخ؟ أو كيف يمكن أن ندرس التاريخ من خلال الفلسفة؟

2. مبادئ فلسفة التاريخ:

تستند فلسفة التاريخ عند هيجل على مبدأين: المبدأ الأول: أن للتاريخ ظاهرا وباطن، ظاهره أحداث ووقائع تبدو في حالة فوضى ودون هدف، وباطنه هو تلك الروح التي تجعل له مسارا محكما ومعقولا، إن الروح التي تسكن التاريخ لا يمكن معرفتها من خلال الآثار التاريخية الجزئية، لأن الروح كلية وشاملة، أما ما

هو جزئي في التاريخ فإنه مجرد واسطة تتخذها الروح من أجل تحقيق أغراضها ومآربها، إنها وسيلة الروح في بلوغ التاريخ وبالتالي ذاتها.

أما المبدأ الثاني: هو أن منطق التاريخ يستند على صراع الأضداد، إذ لا تكشف الروح عن نفسها على مسرح وقائع التاريخ إلا من خلال صراع، ومن ثم فإن الديالكتيك هو سر حركة التاريخ ومنطق الكشف عن تعاقب وقائعه (أحمد صبحي، 1985 ،ص207)، إن المنهج الذي يفسر فلسفة هيجل في التاريخ هو المنهج الجدلي الذي يسم نمو الفكر وحركته في التاريخ، والمنهج الجدلي هو في حقيقته ناتج عن صراع الأضداد، لأن التاريخ يقوم على فكرة الصراع بين الأشياء والأفكار والوقائع، وفي حركتها كلها يتحرك التاريخ وتحقق الروح ذاتها.

3. التاريخ عند هيجل "المذهب والمنهج":

يقول هيجل في بداية مؤلفه "محاضرات في فلسفة التاريخ" أن "موضوع هذه المحاضرات هو التاريخ الفلسفي للعالم وليس المقصود مجموعة من التأملات العامة حول التاريخ،....بل المقصود تاريخ العالم نفسه"(هيجل، 1981، ص63) إن ما يقصده هيجل من هذه المحاضرات هو التاريخ للعالم نفسه وليس التأمل في تاريخ العالم وفقط، بل دراسة تاريخ العالم بما هو تجلي أنطولوجي ومعرفي، إذ نجد في هذه المحاضرات دراسة عامة للتطورات التي طالت تاريخ العالم نفسه.

إن التاريخ في منظور هيجل "هو التاريخ البشري بصفة عامة منظورا إليه من خلال الفكر، وليس التاريخ الذي يهتم بوصف أعمال وأحوال وأحداث وجدها المؤرخون ماثلة أمام أعينهم أو شاركو فيها أو كانو على أقل تقدير شهودا على قيامها، ومن ثم حولوها إلى موضوعات، أو ملكة التصور بهدف عرضها على الأجيال القادمة، وعلى النحو الذي يضمن لها الوضوح ذاته الذي كانت عليه حين قيامها" (منير محمد، 2014، ص510)، ويفهم هنا أن هيجل لا ينظر الى التاريخ من زاوية واحدة أو من خلال بعد واحد كما أنه لا يحدد منهجا واحدا لدراسة التاريخ.

إن فحص التاريخ في نظره يحدد من خلال ثلاثة مناهج وطرق رئيسية وهي "التاريخ الأصلي والتاريخ النظري والتاريخ الفلسفي" (هيجل، 1981، ص63)، ولكل من هذه المناهج طريقه وميزاته الخاصة في دراسة التاريخ، يقول هيجل "أما عن النوع الأول فيكفي- لكي يكون أمامنا نمط محدد- أن نذكر أسما أو إسمين من الأسماء المرموقة وينتمي هيرودوت Herodotus وثوكوديدز Thucydides الى هذه الفئة وهناك غيرهم من ذلك اللون من المؤرخين الذين اهتموا بصفة خاصة بوصف الأعمال والأحداث وأحوال المجتمع التي وجدوها ماثلة أمام أعينهم والذين شاركو في روحها، فهم ببساطة قد نقلو ما حدث في العالم من حولهم الى عالم التمثل العقلي" (هيجل، 1981، ص ص،63- 64)، إن التاريخ الأصلي هو التاريخ الذي عايشه وشاهده المؤرخ بنفسه، وفيه يكون دور المؤرخ وصف ونقل الأحداث التي عايشها وشاهدها إلى الآخرين، "فالحاضر الحي في البيئة من حولهم هو المادة الفعلية التي يستخدمونها والمؤثرات التي شكلت الكاتب هي المؤثرات نفسها التي شكلت الأحداث التي تكون مادة روايته، وروح الكاتب هي نفسها روح الأحداث التي يرويها، فهو يصف مشاهد شارك هو نفسه فيها" (هيجل، 1981، ص65). إن المؤرخ يستقي روايته للتاريخ الأصلي الذي عايشه وشاهده من أحداث الحاضر والواقع الذي يمثل بالنسبة اليه المجال المادي الذي يستعين به، وبالتالي فإن كل ما يؤثر في الحدث التاريخي الواقعي الحادث يؤثر بالضرورة في المؤرخ نفسه، ولذلك سمى هيجل هذا النوع من مناهج الدراسة التاريخية "التاريخ الأصلي".

أما عن النوع الثاني من مناهج دراسة التاريخ يقول هيجل "يمكن أن نسمي النوع الثاني من التاريخ بإسم التاريخ النظري والمقصود به التاريخ الذي يعرض بطريقة لا تحصر نفسها في حدود العصر الذي ترويه، بل تتجاوز روح العصر الحاضر "(هيجل، 1981، ص67)، إن التاريخ النظري يختلف عن التاريخ الأصلي لأن التاريخ النظري لا يتعلق مباشرة بما شاهده وعاينه المؤرخ بنفسه، بل يتعلق

بما يتجاوز الحدث التاريخي والعصر الذي وقع فيه، وحسب هيجل فإن هناك نوعين للتاريخ النظري، حيث يقول: "أما عندنا فكل واحد يعمل على اختراع وجهة نظر فردية تماما، وبدلا من أن يكتب التاريخ ترانا دائما نجهد أنفسنا ونقدح ذهننا في اكتشاف الكيفية التي ينبغي أن يكتب بها التاريخ، وهذا النوع الأول من التاريخ النظري يقترب كثيرا من التاريخ الأصلي حينما يقتصر غرض المؤرخ على عرض الأخبار التاريخية لبلد من البلدان كاملة ومن هذه التصنيفات التي يجب أن نعد من بينها مؤلفات ليفي Livy وديدرو الصقلي وتاريخ سويسرا لـ"يوهانس فون مولر" (هيجل، 1981، ص68)، إن هذا النوع من التاريخ الأصلي ليست له ميزة خاصة ومتفردة، لأنه دائما يبقى في إطار المجال النظري، ولأنه يبحث في الكيفية التي ينبغي أن يكتب بها التاريخ، وهذا الأمر يتعلق تماما بما هو نظري.

أما عن "النوع الثاني من التاريخ النظري هو ما يمكن أن نسميه التاريخ البرجماتي "العملي" Pragmatical فحين يكون علينا أن ندرس الماضي، وأن نشغل أنفسنا بعالم بعيد عنا، فإن حاضرا يبزغ أمام الذهن، ناتجا عن نشاطه الخاص كما لو كان مكافأة للذهن على الجهد الذي يبذله "(هيجل، 1981، ص70)، وهو التاريخ النظري الذي يتعلق بالماضي التاريخي، أي بما كان، ولكن دراسة الماضي التاريخي إنما هي تفتح دائما أفقا للحاضر وهذا ما يشحذ عقل المؤرخ ويجعله يسعى إلى الاستفادة من الماضي في الحاضر، أو أن يكون برغماتيا في دراسته للماضي من أجل الحاضر.

أما عن "الشكل الثالث من التاريخ النظري هو التاريخ النقدي، وهو يستحق أن يذكر على أنه نمط الدراسة التاريخية السائدة الآن في ألمانيا أكثر من غيره وهذه الطريقة لا تعرض علينا التاريخ نفسه، ولذا فربما كان من الأوفق أن نسميها تاريخ التاريخ، لأنها نقد للروايات التاريخية ودراسة لحقيقتها ومعقوليتها" (هيجل، 1981، ص71)، إن التاريخ النقدي هو الدراسة التي لا يكتفي فيها المؤرخ بما

يعرض له من أحداث وأخبار على ما هي عليه أو على ما نقلت له وفقط، وإنما هو يكمن في جهد الباحث المؤرخ الذي يسعى إلى إعمال العقل من أجل إضفاء البعد النقدي في دراساته التاريخية.

أما "النوع الأخير من التاريخ النظري يكشف منذ البداية عن طابعه الجزئي فهو يتخذ لنفسه موقفا مجردا، لكنه مع ذلك يشكل مرحلة انتقال الى التاريخ الفلسفي للعالم مادام يأخذ بوجهة نظر عامة –كما هي الحال مثلا في تاريخ الفن وتاريخ القانون، وتاريخ الدين"(هيجل، 1981، ص72)، إن هذا النوع من التاريخ النظري هو التاريخ المجرد العام الذي يمهد للتاريخ الفلسفي للعالم كما يقصده هيجل، لأنه تاريخ عام وكلي للعلوم والمعارف والفنون الإنسانية.

يبين هيجل انطلاقا من ما سبق أن "النوع الثالث من التاريخ وهو التاريخ الفلسفي،..... وأعم تعريف يمكن تقديمه هو القول أن فلسفة التاريخ لا تعني شياء أخر سوى دراسة التاريخ من خلال الفكر" (هيجل، 1981، ص72)، إن التاريخ الفلسفي يتميز عن كل أنواع الدراسات التاريخية السابقة، إذ هو لا يتوقف عند الممارسة أو التأمل وإنما هو يطال الفكر ذاته باعتباره التاريخ نفسه إن التاريخ في النهاية وفق هيجل هو تاريخ الفكر أو الروح، الذي يقام على أساس منه تاريخ العالم.

وهكذا "يقدم هيجل منظورا فلسفيا عن التاريخ، مؤسسا على فكرة "الحرية"، لكن في هذا المنظور لا يمكن القول إن هذه الفكرة بالذات الفردية "المتناهية"، وإنما هي سيرورة لتحرر الذات المطلقة "اللامتناهية" التي تقوم باستخدام الذوات الفردية كوسائل لتحقيق غاياتها" (فؤاد مخوخ، 2014، ص72)، إن التاريخ هو مسار الروح في تحقق إمكانياتها في الأفراد، ولكن الروح باعتبارها الذات المطلقة هي أساس التغير الحاصل في التاريخ، وعامل الحرية هو الشرط الذي يجعل الروح في تخارج دائم من أجل تحقيق ذاتها في العالم.

4. التاريخ بين المؤرخ والفيلسوف:

يرى هيجل أن "مسار الفلسفة في ما يبدو يتعارض في خط مستقيم مع مسار المؤرخ" (هيجل، 1981، ص73)، إن المؤرخ لا يهمه سوى ما هو كائن أو ما يمكن أن ينقل إليه من ما كان في الماضي التاريخي، بيد أن عمل المؤرخ هذا وعلى الرغم من فائدته وأهميته بالنسبة للبحث في علم التاريخ إلا أن البحث في فلسفة التاريخ يتجاوز ذلك الى البحث عن المسار الذي يتحكم في سيرورة التاريخ ذاتها على النحو الذي هي عليه، ومن ثم البحث عن جوهر الحركة في التاريخ والمجتمعات والحضارات وأسباب بروزها وأفولها، وهذا كله من خلال الفكر النقدي الذي لا يتوقف عند الوصف والسرد التاريخي.

يقول هيجل "إن الفكرة التي تجلبها الفلسفة معها وهي تتأمل التاريخ: هي الفكرة البسيطة عن العقل التي تقول إن العقل يسيطر على العالم، وأن تاريخ العالم بالتالي يتمثل أمامنا بوصفه مسارا عقليا" (هيجل، 1981، ص73)، يبدو أن مسار التاريخ هو مسار العقل الإنساني لأن العقل يسيطر على العالم ويتحكم فيه إذ لا يمكن أن يكون التاريخ أحداث ووقائع ظاهرة وفقط، وإنما له باطن كذلك يتمثل في العقل الإنساني الذي يسيره ويتحكم فيه، إن التاريخ هو بالدرجة الأولى تاريخ العقل أو الروح وما عاد ذلك من وقائع وأحداث ما هو إلا انعكاس لها وفقط.

يبين هيجل معنى فلسفة التاريخ من خلال نفيه للاتهامات التي توجه الى الدراسات الفلسفية للتاريخ من خلال عدة نقاط أهمها أن: الفيلسوف لا يزاحم المؤرخ التجريبي في البحث عن الوقائع التاريخية وجمع المعلومات والمادة والوثائق وما إليها، وإنما هو يترك له هذه المهمة وينحصر دور المؤرخ الفلسفي في تفسير أحداث التاريخ (إمام عبد الفتاح، تقديم محاضرات في فلسفة التاريخ لهيجل 1981، ص40)، إن عمل الفيلسوف يختلف عن عمل المؤرخ، إذ ليس من مهمة

فيلسوف التاريخ البحث في الوقائع التاريخية وجمع المعلومات والمواد التاريخية والوثائق وغيرها، وإنما هو يؤسس للنظريات التي تفسر لنا التاريخ من خلال اجتهاد العقل وعمله النقدي في فهم ودراسة مسار التاريخ.

يكشف هيجل على وجه الدليل كيف أن العقل يحكم التاريخ وكيف أن مسار التاريخ هو مسار العقل الإنساني ذاته، أو أن التاريخ العالمي هو تاريخ العقل والروح، لأن العقل جوهر الطبيعة والوجود، وبالتالي فالأحرى به أن يكون جوهر التاريخ ذاته، و"إذا كان العقل هو جوهر الطبيعة على هذا النحو فإنه جوهر التاريخ البشري أيضا مع فارق هام جدا: هو أن العقل الذي يحكم التاريخ هو عقل واع بذاته أعني هو العقل البشري الذي يعرف ويعي ويدرك ما يفعل" (إمام عبد الفتاح، 1981،ص ص41-42)، إن العقل الذي يحكم التاريخ البشري هو عقل كلي وعام واع بذاته، لأن كل ما يتأسس في تاريخ الإنسان وفي مسار وتاريخ العالم ككل ما هو إلا انعكاس للعقل الكلي والعام أو العقل الكلي أو الروح المطلق في النهاية، لأن "الحق هو المطلق، والمطلق هو الحق" (Roland Quilliot, 1997, p65)

لكن دراسة التاريخ من خلال العقل لا تعني أن دراسة التاريخ لا تتم إلا من خلال الفلسفة أو أن الفلسفة تغني عن دراسة علم التاريخ، بل أن علم التاريخ يبقى علما مستقلا له خصائصه وميزاته المنهجية والمعرفية، ولذلك فإن هيجل لا يقصى البعد التجريبي الموضوعي لعلم التاريخ ذاته، "لكن قولنا إن العقل يحكم التاريخ لا يعني أننا نقحم أفكارا فلسفية على علم التاريخ الذي ينبغي أن يظل – كما يقولون- علما تجريبيا، كلا بل إن هذه الفكرة نتيجة مستخلصة من دراستنا للتاريخ.... ينبغي أن نتناول التاريخ كما هو وأن نسيطر بطريقة تاريخية، أعني بطريقة تجريبية"(إمام عبد الفتاح، 1981، ص42)، إن علم التاريخ علم تجريبي

والفلسفة تقدم لعلم التاريخ وللتاريخ ككل نظرتها النقدية التي لا تلغي البعد التجريبي في التاريخ وإنما تقدم لنا التفسير العقلاني له.

يحدد هيجل ثلاثة عناصر أساسية تفسر ما يعنيه بقوله إن العقل يحكم التاريخ وهذه العناصر هي: -ماهية العقل، أو ما المقصود بالعقل- الأساليب أو الطرق التي يستخدمها العقل لكي يتحقق -الصورة التي يتحقق فيها في النهاية- (إمام عبد الفتاح،1984، ص45)، إن العقل يسعى إلى أن يحقق نفسه في التاريخ إن جوهره وماهيته هي التفكير والمعرفة والحرية، إنه الذات التاريخية التي تحقق نفسها بشكل موضوعي في تاريخ العالم وما تفتأ تتخارج حتى تعود إلى ذاتها العودة المطلقة، إن الذات التاريخية هي المطلق في النهاية.

يتساءل هيجل عن طبيعة وماهية العقل قائلا "ما طبيعة الروح أو ما ماهية العقل...؟ الجواب: هو أن طبيعة الروح عكس طبيعة المادة، فإذا كانت ماهية المادة الثقل، فإن ماهية العقل هي الحرية، (.....) تاريخ العالم إذن هو مسار تكافح فيه الروح لكي تصل الى وعي بذاتها، أعني لكي تكون حرة، ومن هنا فهو ليس إلا تقدم الوعي بالحرية" (إمام عبد الفتاح، 1981، ص ص 45-46)، إن التاريخ ذاته ما هو في النهاية إلا مسار العقل أو الروح من أجل الحرية، إن هدف العقل أو الروح في النهاية هو تحقيق كامل الوعي بذاتها وهذا ما يشترط الحرية، إن عودة الروح إلى ذاتها يعادل تخارجها الموضوعي وتحققها في تاريخ العالم بشكل كلي موضوعي وفي هذا التخارج تتحقق العودة والاغتنام الذي تحققه الروح أو العقل لكي تكون ذاتها.

إن العنصر الثاني هو الوسائل التي تستخدمها الروح لكي تتحقق بالفعل في العالم، إن الروح تكون في الأصل أشبه بالبذرة أعني جوانية غير متطورة ثم تبدأ بتطوير نفسها شيئا فشيئا مستخدمة وسائل"(إمام عبد الفتاح، 1981، ص48) إن الروح أو العقل لا تستطيع تحقيق كمال ذاتها بشكل مباشر في البداية وإنما

تسعى إلى ذلك تدريجيا ثم تتطور شيئا فشيئا في التاريخ سعيا إلى تحقيق ذاتها وفي سعيها هذا تتأكد حريتها، "... إن الفكرة تتحقق باستمرار عن طريق ضدها، فالمبدأ أو الغاية أو طبيعة الروح هي شيء مجرد وعام أو كلي فحسب أو هو وجود من أجل ذاته" (إمام عبد الفتاح، 1981، ص48).

وقد قدم هيجل تاريخ العالم "بوصفه تقدم تدريجي لعملية ارتقاء الروح بذاتها من مرحلة تاريخية إلى التي تليها. بحيث تحقق ماهيتها –الحرية- في صيرورة ارتقائها تلك وعلى مراحل التاريخ المتعاقبة، ذلك أن التاريخ الكلي يكشف عن تطور الوعي بالحرية من جانب الروح،... وتتخذ صورا متعاقبة تتجاوزها على التعاقب، وعن طريق عملية التجاوز تلك تكتسب طابعا إيجابيا أكثر عينية في الواقع" (منير محمد، 2014، ص523).

إن الروح قبل أن تحقق كيانها ووجودها كانت في البدء عبارة عن فكرة مجردة ثم تخارجت هذه الفكرة في نقيضها، أي في شكل موضوعات ثم عادت إلى نفسها، وبالتالي فإن "....العنصر الثالث وهو الشكل الذي تتحقق فيه الروح والواقع، إن هذا الشكل لا بد أن يكون وحدة للإرادة الذاتية والإرادة الموضوعية أو الجانب الذاتي والجانب الموضوعي، وهذه الوحدة لا تتجلى إلا في الكل الأخلاقي أو الدولة" (إمام عبد الفتاح، 1981، ص51)، إن الروح الذاتي هو الفكر وهو ماثل أمام نفسه بدون تخارج أو تحقق أما الروح الموضوعي فهو الروح الذاتي وهو متخارج ومحقق ذاته في تاريخ العالم أما الروح المطلق فهو التحقق الكامل لها في شكل الدولة أو الكل الأخلاقي (مقدمة المترجم، هيجل، 2003، ص ص 50-51).

وهنا يستحضر هيجل فكرة الآخرية أو ما يسميه أحيانا السلبية البسيطة فالجوهر الحي أو الروح هو آخر ذاته مع نفسه، إنه المزدوج الذي يضم ضده، ثم يعود من جديد الى سلب هذا النوع المحايد ونقيضه (مقدمة المترجم، هيجل، 2003، ص136)، إن الفكرة تحمل نقيضها في ذاتها ومن ثم يأتي الجدل لكي

يحرك الفكرة نحو نقيضها فالمركب بينهما، الذي يتحول إلى فكرة جديدة إلى نقيضها، فالمركب الثاني وهكذا فإن مسار التاريخ برمته هو حركة جدلية ما تفتأ تكتمل حتى تبدأ من جديد.

5. البعد الفلسفي في التاريخ:

إن نظرة هيجل إلى التاريخ لا تخلو من بعد فلسفي عميق، إن فلسفة التاريخ عنده هي كذلك ذات بعد علمي، إذ مادامت الفلسفة علما والعلم نسقا فإن هذا كله يتم من خلال الفكرة الشاملة أو المطلق باعتباره النسق الكلي والشامل الذي يفسر لنا في الأخير حركة الفكر في علاقته الجدلية بالتاريخ، ولهذا "يصر هيجل على أن تكون الفلسفة علما وعلى أن يكون العلم نسقا والوسط الذي يعمل فيه هذا النسق هو الفكرة الشاملة" (مقدمة المترجم، هيجل، 2003، ص36)، إن الفكرة الشاملة هنا هي الروح المطلق الذي يصبو اليه التاريخ وينحل فيه، إن الدولة هي التوليفة التي يتركب فيها الذاتي مع الموضوعي، ولذلك فإن "تصوره عن الدولة أنها الروح الملازمة والتاريخ –فالتاريخ ليس إلا تاريخها –هما اللذان صنعا ويصنعان الدساتير" (روجي غارودي، د-س، ص70)، إن تجسد الدولة في صورة واقعية في التاريخ إنما هو تعبير عن تحقق الروح أو الفكرة في الواقع، ولذلك "لا يعود وجود الدولة الى أسباب سياسية وحسب، بل يعود كذلك الى حاجة الإنسان الى الاجتماع، ذلك أن الدولة هي الإطار الوحيد حيث يحقق الإنسان حاجاته المادية والروحية من خلال الزمن المعيش الذي هو التاريخ، إنها المجال الذي تتشكل فيه اجتماعية Sosiability الإنسان، أما غياب الدولة فأمر يخالف العقل ويصفه هيجل بـ"الجنون" (بوقاف عبد الرحمان، 1997، ص18)، إن الدولة هي الإطار الموضوعي الواقعي الذي يتحقق من خلاله وجود الإنسان في التاريخ إذ لا يمكن تصور وجود المجتمع بدون الدولة، إنها تجسيد للعقل في التاريخ.

"لقد تعرض هيجل وهو بصدد دراسة الدولة الى فلسفات التاريخ وذهب فيه الى أن هناك مراحل أربعة، الأولى مرحلة العالم الشرقي، والثانية مرحلة العالم الإغريقي، والثالثة مرحلة العالم الروماني والرابعة والأخيرة مرحلة العالم الألماني" (عبد المعطي علي، د-س، ص314)، إن تجسد الدولة في التاريخ قد مر بمراحل متعددة، حيث كان تجسد الدولة في الحضارات الشرقية القديمة بداية الروح الدخول الى التاريخ ثم ما فتئت الروح تنتقل الى تجسد أخر في العالم الإغريقي والروماني، ولكن مع العالم الألماني استطاعت الروح أن تحقق سطوتها على التاريخ وأن تتجسد تجسدا موضوعيا في أنموذج الدولة الألمانية الحديثة التي اتحدت فيها الروح الذاتية مع الروح الموضوعية فكانت المطلق.

يبدو أن الفلسفة المثالية عند هيجل لا تقصي الواقع خصوصا في نظرتها للتاريخ، وإنما هي تنظر إليه بمنظور عقلانية الفكر أو الروح، "إن الفكرة السيدة لهيجل ليس فيها سر أو لغز: تماثل الكينونة والفكر هو تأكيد عقلانية الواقع شفافية الواقع العقلية الكاملة بالنسبة للفكر" (روجي غارودي، د-س، ص156) إن الواقع انعكاس للفكر أو الروح في التاريخ، ومن ثم فإن هناك روحا يسكن التاريخ والواقع، إذ لا يمكن تصور واقع منعزل تماما عن الروح أو الفكر، وهنا "يطرح هيجل مفهوم الحياة بصفته المفهوم الأكثر تأملية وشمولية لتفسير العلاقة بين الإنسان والطبيعة، وذلك لمعرفة ما إذا كان شكل معين من أشكال المجتمع... يمكن أن يعيش منسجما مع الطبيعة أو غريبا عنها، لكن الطبيعة ليست كائنا جامدا بل حيا،... ومادام للحياة الدور الذي ذكرنا كانت الحاجة الى توحيد الإنسان بها بصفته حياة متناهية تفترض الحياة اللامتناهية التي تستمر أبدا في سيرها مادامت تخلق نفسها بواسطة الكثرة من الحيوانات"(بوقاف عبد الرحمان 1997، ص30)، إن التاريخ ذاته هو تاريخ الروح في بدايتها وفي تمظهراتها الواقعية وبالتالي فإن العالم والطبيعة والأخلاق والمؤسسات والدولة كلها انعكاسات للروح

موضوعيا وتجسيدا لها في صورتها الموضوعية التي تؤكد دهاء الروح وقدرتها في العودة إلى ذاتها العودة المطلقة.

6. تقييم فلسفة التاريخ عند هيجل:

يبدو أن فلسفة هيجل في التاريخ فلسفة مثالية مجردة على الرغم من البعد الموضوعي الذي يضفيه عليها، لأن الواقع التاريخي من أحداث ووقائع ينحل في الفكر أو الروح، كما أن "هذه نظرية بلغت الذروة في التجريد –مع حملة هيجل على التجريد- الى حد لم يصبح للمادة التاريخية فيها إلا أضأل مكان وأضيق مجال، وهو يبرر ذلك بالسمو بالمضمون التجريبي الى مرتبة الحقيقة الصورية ومن ثم السمو بالإمكان الى مرتبة الضرورة، ولكن ذلك قد جعل النظرية مفتقرة تماما الى المادة التجريبية والى الحقيقة الموضوعية"(أحمد صبحي،1985 ص255) إن الحقيقة التاريخية الموضوعية هي التي تصبح مغيبة بشكل ما في النسق الهيجلي، لأن الحقيقة في نظره هي حقيقة الروح وما هو موضوعي هو الروح المطلق لا غير.

يرى هيجل أن القول العقل يحكم التاريخ ينتمي الى الفلسفة النظرية وفي الآن ذاته يرى أنه استخلص هذا الأمر من تاريخ العالم، وهذا يعد في حد ذاته تناقض، إذ كيف يمكن أن نسلم بديهيا أن العقل يحكم التاريخ ثم نبرهن على هذه البديهية أو المسلمة من تاريخ العالم نفسه أو من التاريخ الواقعي. ولذلك يمكن القول حسب "إمام عبد الفتاح إمام" أنه عند هيجل "فكرة مسبقة عن المسار الذي يجب أن يسلكه التاريخ قبل أن يعرف أي واقعة تاريخية على الإطلاق" (عبد الفتاح إمام، 1981، ص55)، وقد أتهم هيجل بزعمه أن التاريخ انتهى معه لأنه قال كل شيء يمكن أن يقال فيه، لكن قد "نسب إليه نفر من خصومه عبارة ساذجة تنطوي على غرور، وهي قوله: "عندي ينتهي التاريخ" والحق أن الرجل لم يقل شيئا من ذلك كما أثبته تلميذه ومجدد فلسفته فيلهلم ديلتالي Wilhelm

Dilthey وإنما زعمه خصومه من الماركسيين. ومن المعروف أن كارل ماركس وأتباعه اجتهدو في هدم آراء هيجل، وقد أبغضوه لإيمانه الشديد بالمسيحية ولمناصرته للدول والنظم الرأسمالية التي سادت الغرب في أيامه" (حسين مؤنس، 2001، ص19).

ويبدو أن "الهيجليين في الجيل التالي رفضو نظرة هيجل هذه وقالو أن التاريخ الذي وضع هيجل فلسفته ليس عملية إنسانيه، بل إلاهية، وموضوعه ليس الإنسان، بل روح العالم أو الـ Idée بالمعنى الذي لهذا اللفظ عند هيجل فإنبثق عن هذا الجيل الثاني فكرة المادية التاريخية التي ترى أن الإنسان وهي تقصد به الإنسان المتحرر في ظروف العمل في مجتمعه هو موضوع التاريخ" (بدوي عبد الرحمان، 1984، ص160)، أي على أنقاض المثالية الهيجلية قامت الفلسفة الماركسية التي لها بعد أخر ونظرة مغايرة في التاريخ وإن كانت تبدأ من المنطلق المنهجي نفسه.

7. خاتمة:

صفوة القول أن نظرية هيجل في التاريخ تعتمد على فلسفته المثالية، حيث أن مذهبه هو المذهب المثالي، أما المنهج فهو المنهج الجدلي الديالكتيكي، إنها نظرة تعتمد على نظريته المثالية في المعرفة والوجود، إذ ولئن كان هيجل قد أعطى أهمية للواقع الموضوعي في التاريخ إلا أنه جعل هذا الواقع يتحدد من خلال أطر ومحددات مثالية، ويمكن القول أن هيجل لم يستطع أن يلائم في نظرته الى التاريخ بين مذهبه الفلسفي وبين طبيعة المنهج الذي اعتمد عليه، ذلك أن المنهج الجدلي لا يتوافق بالتمام مع المذهب المثالي، لأن الجدل في حد ذاته يقف ضد المذهب، ومن طبيعة وخصوصيات المنهج الجدلي أنه لا يتوقف، بل هو حركة مستمرة بين القضية ونقيضها فالمركب بينهما الذي يتحول الى قضية أخرى يقابلها نقيضها فالمركب الجديد بينهما وهكذا، ولكن هيجل لم يبين كيف أن هذا المنهج الذي اعتمده في تفسير حركة التاريخ والوعي الانساني يتوقف في لحظة المطلق لأن المطلق يعني كل ما هو خارج عن الضرورة وبعبارة هيجل هو آخر ذاته مع نفسه أو الكلي الذي لا تصدق عليه حركة الجدل، فالمطلق ليس قضية يبدأ منها المنهج الجدلي وإنما هو مبدأ يرتد إليه الجدل ويتوقف عنده ومن هنا نجد أن النظرية الهيجلية في فلسفة التاريخ تناقض نفسها بنفسها.

قائمة المراجع:

- فريديريك، هيجل. (1981). *محاضرات في فلسفة التاريخ، الجزء الأول: العقل في التاريخ*. تر: إمام عبد الفتاح إمام، (ط2).

- فريديريك، هيجل. (2003). *ظاهريات الروح*. تر: إمام عبد الفتاح إمام، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.

- صبحي، أحمد محمد. (1985). *في فلسفة التاريخ*. الإسكندرية. مؤسسة الثقافة الجامعية.

- مؤنس، حسين. (2001). *التاريخ والمؤرخون دراسة في علم التاريخ ومدخل إلى فقه التاريخ*. (ط2) دار الرشاد.

- غارودي، روجي. (د-س). *فكر هيجل*، دار الحقيقة بيروت، ترجمة وتقديم إلياس مرقص.

- عبد المعطي، علي. (د-س). *الفلسفة الحديثة من القرن 17 الى القرن 20*، منشأة المعارف.

- بوقاف، عبد الرحمان. (1997). *نشأة النسق الهيجلي، الجزء الثاني من توبنجن الى فرانكفورت*. *مجلة دراسات فلسفية*، السنة الثانية، العدد الرابع، السداسي الثاني.

- بدوي، عبد الرحمن. (1984). *الموسوعة الفلسفية*، (ط1) ج2، بيروت. المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

- مخوخ، فؤاد. (2014). *إشكالية الحتمية والحرية في التاريخ من منظور إرنست كاسيرر*، *مجلة تبين*. العدد15.

- محمد، منيرة. (2014). *جدل الحرية والتاريخ عند هيجل*، *مجلة جامعة دمشق*، المجلد 30 العدد1+2.

- Quilliot , Roland, (1997*). la vérité* , ellipses, édition marketing, S.A.